

Β' ΔΙΑΟΡΘΟΕΟ ΕΠΙΣΤΗΜΟΝΙΚΟ ΣΥΝΕΔΡΙΟ  
ΓΕΡΟΝΤΑΣ ΙΩΣΗΦ Ο ΗΣΥΧΑΣΤΗΣ  
ΑΓΙΟΝ ΟΡΟΣ - ΦΙΛΟΚΑΛΙΚΗ ΕΜΠΕΙΡΙΑ  
Ιερά Μητρόπολη Λεμεσού – Ι. Μ. Μονή Βατοπαιδίου  
Ξενοδοχείο Miramare  
Λεμεσός, 21-23 Οκτωβρίου 2005

ملامة الذات والإدعاء  
عند الشيخ يوسف الهدوني

المطران د. بولس يازجي  
متروبوليت حلب والاسكندرون وتوابعهما للروم الأرثوذكس

P.B. 6976 ALEPPO – SYRIE - TEL: + 963 21 4660670 - FAX: + 963 21 4660671

-WEBSITE: [WWW.ALEPPORTHODOX.ORG](http://WWW.ALEPPORTHODOX.ORG) E-MAIL: [SECRETARY@ALEPPORTHODOX.ORG](mailto:SECRETARY@ALEPPORTHODOX.ORG)

Λεμεσός 2005

## ملامة الذات والإدعاء

### عند الشيخ يوسف الهدوثي<sup>1</sup>

#### مقدمة

عند مطالعتك ما صدر من مؤلفات للشيخ يوسف الهدوثي، تتملكك الدهشة والمفاجأة. لأنَّ الشيخ يضعنا بكتاباتهِ في مواجهةٍ صريحةٍ مع نعمة الله. يعلِّمنا الأبُّ الحربَ الروحية القائمة بين النفس البشرية والنعمة الإلهية. عندما يطلبُ الإنسان اقتناء الروح القدس والحفاظ على نعمته ماذا عليه أن يقدم بالمقابل ثمناً لذلك؟ أتعاباً؟ أم جهاداً متواصلاً؟ أم أعراق؟ نعم كلّها، ورغم ذلك فإنّها وإن اجتمعت معاً، لا تستطيع وحدها اجتذاب نعمة الله. لأنّه قبل هذه كلّها على المجاهد أن يقتني التواضع أولاً!

النعمة الإلهية، بالنهاية، هي المدّرب والمعلّم، تربّينا في حضورها وتعيّبها، إلى أن يكتسب المجاهد تواضعاً ويعرف ذاته ويلومها على الدوام.

يؤهلّ التواضع، والتواضع أولاً، المؤمنَ للنعمة الإلهية<sup>2</sup>. عديدة وكثيرة هي الفضائل المسيحية، كالإحسان، والعفة... الخ. لكن هناك فضيلتان اثنتان، تُدعيان فضيلة لكنهما لا تندرجان مع سائر الفضائل في الأهمية. الأولى هي "التواضع"، والثانية هي "المحبة". تشكّل فضيلة "التواضع" الألفَ (البداية) للحياة الروحية، فهي أساس كلّ الفضائل ومدخلها، إذا غابت استحالت بالحقيقة أية فضيلة أخرى. أمّا المحبة فهي بمثابة الباء (النهاية) لكلّ الفضائل، إنّها الغاية، إذا لم تتحقق نتعب عبثاً.

ملامة الذات هي الممارسة الأولى في سبيل الوصول إلى التواضع، وهي الطريق الأساسية إلى هذه الفضيلة.

يُعبّر الشيخ يوسفٌ تماماً عن التقليد النسكيّ الأرثوذكسيّ حول الحرب الروحية غير المنظورة، خاصة في موضوع فضيلة ملامة الذات وعكسها رذيلة الإدعاء. هذا كان نتيجة خبرة عملية عاشها، اجتازها وأتقنها الأب من خلال اختبارها لهذا التقليد بعمق، وليست وليدة معرفةٍ نظرية.

الشيخ يوسف هو عاشقٌ للنعمة، ومتسوّل لها، يطلبها على الدوام ويهيم وراءها. عاش الشيخ على طعام المنّ السماوي، لذلك وضع نُصب عينيه، من خلال كلّ أتعابه وجهاداته الروحية، أن يدرك هوان الطبيعة البشرية وضعفها من جهة، وعظمة الهبة الإلهية من جهةٍ ثانية. هذا ما جعله أولاً، أن يشكر الله على الدوام،

<sup>1</sup> ترجمة عن المقالة:

*Αυτομεμψία και Καύχηση στα κείμενα του Γέροντος Ιωσήφ του Ησυχαστού*, Β' Διαορθόξο Επιστημονικό Συνέδριο Γέροντας Ιωσήφ Ο Ησυχαστής Αγίου Όρους, Φιλοκαλική Εμπειρία Ιερά Μητρόπολη Λεμεσού, I. M. Μονή Βατοπαϊδίου, Λεμεσός, 21<sup>η</sup>-23<sup>η</sup> Οκτωβρίου 2005.

<sup>2</sup> Μουτσάκη, Βασιλείου, «Ταπεινοφροσύνη», *ΘΗΕ*, τ.11, Αθήνα 1967, σ.683.

وثانياً أن يقتني التواضع. حياته وتعاليمه هي مدرسةٌ مثالية لكلّ مسيحيٍّ صادق يريد أن يسلك "الطريق الضيقة المؤدية إلى الحياة"<sup>٣</sup>، هذه الحياة التي طعامها وطعمها هو مواهب الرّوح القدس وحضور النعمة الإلهية. سنستخلص من حياته وتعاليمه ورسائله، كيف ينجح أحدنا باقتناء نعمة الرّوح القدس والحفاظ عليها.

## ملامة الذات والإدعاء

تبدأ طريق الحياة الحقيقية من ملامة الذات! ألم يكن "الإدعاء" سبب الطريق المخالفة، أي الموت، التي أبعدتنا عن نعمة الله؟ أو لم يكن الغرور والإدعاء سبب سقوط الإنسان وعلّة طرده من الفردوس؟

ساعدت عائلته المؤمنة كثيراً في تنشئة الروحية الصحيحة هذه<sup>٤</sup> ومن ثمّ عمله<sup>٥</sup>. أضف إلى ذلك اقتداءه بأمثلة النساك الكبار ومحبته لهم<sup>٦</sup>. مطالعته لمجلة "الصيف"<sup>٧</sup> أثرت كثيراً على نفسه، فقرّر مبكراً جداً أن يُعطي كلّ ذاته إلى التمرّن على حياة النساك والاقتراء بفضائلهم، ولقد سلك الطريق الملكية والصحيحة في ذلك، أي أطاع أباً روحياً حكيماً، وتدرّب على يده<sup>٨</sup>. لذلك تأهّل سريعاً لرؤى إلهية مع العذراء والقديسين<sup>٩</sup>. لم ترمه هذه الأحداث العظيمة في الغرور، بل على العكس زادت من تواضعه، ومن تقريعه لذاته كغير مستحق لهذه النعم.

وضع الشيخ نُصَبَ عينيه الآية الإنجيلية "من بذل نفسه من أحلي يجدها"<sup>١٠</sup>. إنّها وصية الرّب "أن ننكر ذاتنا"، وأن "نكره أنفسنا - أنايتنا"<sup>١١</sup> إلى أن نطرح "الإنسان العتيق"<sup>١٢</sup>.

ملامة الذات هي "الموت المحيي"<sup>١٣</sup>، وهي الطريق التي بها "ينكر الإنسان نفسه من أجل المسيح فيجدها"<sup>١٤</sup>. ملامة الذات لا تتحقق ببعض التصرفات الخارجية والفريسيّة: "اطلب التواضع الحقيقي، لا تنغشّ

<sup>٣</sup> انظر مت ٧، ١٤.

<sup>٤</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής – Βίος, Διδασκαλία, «Η δεκάφωνος σάλπιγξ»*, Ψυχωφελή Βατοπαιδινά 1, έκδ. I. M. M. Βατοπαιδίου, Άγιον Όρος 2004, σ.37.

<sup>٥</sup> المرجع السابق، ص ٣٨.

<sup>٦</sup> المرجع السابق، ص ٣٨-٣٩.

<sup>٧</sup> المرجع السابق، ص ٣٨-٣٩.

<sup>٨</sup> المرجع السابق، ص ٤٣.

<sup>٩</sup> المرجع السابق، ص ٥٥.

<sup>١٠</sup> مت ١٦، ٢٤-٢٥، انظر أيضاً: 684، σ. Μουτσάκη, Βασιλείου, ό.π.,

<sup>١١</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.55.

<sup>١٢</sup> كو ٣، ١٩.

<sup>١٣</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.213.

<sup>١٤</sup> مت ١٠، ٣٩.

يبضع كلماتٍ عن التواضع التي هي مجرد ثرثرة فيه، ولكن اجعل نفسك كالتراب ليطأك الجميع"<sup>١٥</sup>، يقول الشيخ.

ملامة الذات تفترض تعريفاً جديداً للعدل وللحقوق الذاتية: "من يريد العدلَ فليعرف أنه يجده في حَمَلِ أُنْقَالِ الأخوة وتبني أتعابهم حتى الرمق الأخير"<sup>١٦</sup>، "وإن طلبت العدل بطريقتيِ أخرى فأنت دائماً ظالم"<sup>١٧</sup>. ملامة الذات لا تجد ظالماً في أي شيء إلا في الأهواء الشخصية<sup>١٨</sup>. "عفواً"، هي الكلمة الوحيدة للتعامل في قاموس الشيخ يوسف: "قل لكلٍ أحدٍ عفواً، ووبّخ نفسك في كلِّ شيء، ولا تطلب الحقوق أو تفرض رأيك"<sup>١٩</sup>. إنه لأمرٌ طبيعيٌّ ومنتظرٌ أن يخطئ الإنسان، وأن يسامحَ اللهُ، لكنّ حلقة الوصل هي ملامة الذات، هذه الأخيرة ليست مجرد بعض كلماتٍ إنما هي الثبات بتواضع في حياة التوبة، هكذا صرخ داوود النبي: "أخطأت إلى الرب"، عندما كلّمه ناثان<sup>٢٠</sup>. لهذا، يكتب الشيخ يوسف: "الجا فوراً إلى التوبة عندما تخطئ، ولا تضيّع زمناً. لأنّه كلّما أبطأت كلّما أعطيت فرصة أكبر للشيطان ليحذّر فيك إرادته، لا تدعه يمدّ جذوراً في حياتك. لا تخجل ولا تيأس. انهض على الفور. نحن أمام الآخر وقُل: اغفر لي يا ربي يا يسوع إني إنسانٌ ضعيف"<sup>٢١</sup>.

ملامة الذات، يقول الشيخ: "هي أن تروي نفسك دائماً لا بالمديح والكرامات، إنما بإدانة الذات وتوبيخها كمدنية"<sup>٢٢</sup>، حتى ولو كانت لديك القناعة أنك لم تخطئ، تبّ واعتذر وكأنك مخطئ، ومن كلّ قلبك. وحذار أن تقول، من أجل المديح، كلمات الاعتذار ظاهرياً بينما أنت تدين من الداخل"<sup>٢٣</sup>. يؤدّبنا الربّ عامة عندما يخبئ عن ناظرنا النجاحات ويضع أمامنا الهفوات دائماً، لكي نتوب ونحيا وتواضع<sup>٢٤</sup>، إنها طريق مثالية للتربية<sup>٢٥</sup>؛ لهذا إنّ الموضوع الأول في صلواتنا هو طلب الغفران والرحمة<sup>٢٦</sup>، واسمنا الأول هو "عبيد الربّ"<sup>٢٧</sup>.

<sup>15</sup> Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, έκδ. I. M. Φιλοθέου, Άγιον Όρος <sup>5</sup>1996, σ.146.

<sup>16</sup> المرجع السابق، ص ٢٣٥.

<sup>17</sup> المرجع السابق، ص ٨٢.

<sup>18</sup> المرجع السابق، ص ٤٧.

<sup>19</sup> المرجع السابق، ص ٣٦٤.

<sup>20</sup> ١ ملو ١٢، ١٣.

<sup>21</sup> Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, ό.π., σ.127.

<sup>22</sup> المرجع السابق، ص ٦٠.

<sup>23</sup> المرجع السابق، ص ٦٠، ٣٤، ٣٦، ٧٧. انظر أيضاً:

Βαρσανουφίου και Ιωάννου, Κείμενα διακριτικά και ησυχαστικά (ερωταποκρίσεις), τ.Γ', έκδ. Ετομιασία, Καρεάς 1997, σ.383.

<sup>24</sup> Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, ό.π., σ.43, 73.

<sup>25</sup> المرجع السابق، ص ٢١.

<sup>26</sup> المرجع السابق، ص ٨٥.

ملامة الذات هي أمّ الدموع في الصلاة<sup>٢٨</sup>. ينصحنا هنا الشيخ أن نقرأ إفرام السوري<sup>٢٩</sup>. ملامة الذات تخلّصنا من "التعلّل بعلم الخطايا"<sup>٣٠</sup>. الترفع والغرور هو بالواقع لون من ألوان الكذب، وحيلة شيطانية. أمّا ملامة الذات فهي الطريق إلى معرفة الذات والحقيقة<sup>٣١</sup>.

إذا تأملنا في هوان طبيعتنا، فبأيّ حالٍ سنترفع ونعترّب بعد: "كلّنا بشرٌ ومن التراب جُبلنا وجميعنا أخطأنا. طينٌ نحن، وجهلنا كثير"<sup>٣٢</sup>. "ماذا عندك يا نفسي الشقية ولم تأخذه؟ أو تدعين أيتها المتكبرة وكأنك لم تأخذه؟ انظري يا نفسي وتعرفي إلى الحسن والواهب، ولا تفتخري بما هو من الله وليس منك"<sup>٣٣</sup>. لكن ما أعظمها من موهبة، إذا ما تأملنا بها! أنقدّر حقّ التقدير قيمة النعمة الإلهية؟ أنعرف حقاً ما معني أننا خلّقنا بنفخة من روح الله؟<sup>٣٤</sup> لتتذكّر يوماً كلمات أيوب الصديق: "ويحي أنا دودٌ وتراب"<sup>٣٥</sup>. على كلِّ إنَّ خبرة الحياة وتجاربها تعرّف الإنسان على هوان وضعف طبيعتنا<sup>٣٦</sup>.

ضِعَةُ الحياة تؤكد أنّ القيمة الوحيدة هي للنعمة، التي بدونها "باطل الأباطيل كلُّ شيء باطل"<sup>٣٧</sup>. يتنهّد الشيخ: "أيها العالمُ الباطل، كم أنتَ تعيسٌ، وكم هو نعيم تلك الحياة الأبدية التي لا تنتهي للمطوبين"<sup>٣٨</sup>. نلوم ذواتنا بسهولة لو تذكّرنا: "إنّا جميعاً أخطأنا وعَدِمنا مجدَ الله"<sup>٣٩</sup>. بالعمق إنَّ الإنسان في منفى<sup>٤٠</sup>، وحياته ضعيفة، فكيف وبماذا يفتخر؟ على العكس عليه أن يفكر "كيف يتممها بخير!"<sup>٤١</sup> وإذا ما رأى في

<sup>٢٧</sup> المرجع السابق، ص ٤٠٥.

<sup>٢٨</sup> المرجع السابق، ص ٥٩.

<sup>٢٩</sup> المرجع السابق، ص ١٣٥.

<sup>٣٠</sup> مز ١٤٠، ٤. انظر أيضاً:

Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, ό.π., σ.359.

<sup>٣١</sup> المرجع السابق، ص ٤١٩.

<sup>٣٢</sup> المرجع السابق، ص ٤٢٦.

<sup>٣٣</sup> المرجع السابق، ص ٢٣٩.

<sup>٣٤</sup> المرجع السابق، ص ٢١١. انظر أيضاً ص ٢١٠:

"Τι έχεις λοιπόν, υπερήφανε άνθρωπε, όπερ ουκ έλαβες; Ει δε και έλαβες, τι καυχάσαι ως μη δήθεν λαβών; Γνώθι, ψυχή ταπεινή, τον σον ευργέτην και πρόσχες μη σφετερισθής τα ζένα – το του Θεού, ως ίδια κατορθώματα".

<sup>٣٥</sup> أبو ٤٢، ٥-٦. انظر أيضاً:

Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, ό.π., σ.121.

<sup>٣٦</sup> المرجع السابق، ص ٣٦٦.

<sup>٣٧</sup> Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, ό.π., σ.241, 289.

<sup>٣٨</sup> المرجع السابق، ص ٢٤٢.

<sup>٣٩</sup> رو ٣، ٢٣.

<sup>٤٠</sup> Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, ό.π., σ.51.

<sup>٤١</sup> Γέροντος Ιωσήφ, Ο Γέρων Ιωσήφ ο Ησυχαστής, ό.π., σ.397.

حياته شيئاً للاعتزاز، فلينسب ذلك للهبة الإلهية وليس لمحاولاته البشرية<sup>٤٢</sup>، ولا إلى طبيعته الضعيفة والمريضة<sup>٤٣</sup>. يقول القديس أنطونيوس الكبير: "ملامة الذات أفضل لعمل للإنسان، لكي يطرح ضعفاته أمام الله"<sup>٤٤</sup>. الخطر الأعظم الذي ينتج عن الإدعاء والغرور هو رحيل النعمة وغيابها، لهذا فإن ملامة الذات أفضل من الإدعاء والمديح الذي يضر حتى بالكاملين، فكيف بالمتدئين؟<sup>٤٥</sup>. هذا ما يتغيه الشيطان الماكر: ألا نجاهد، ولكن حتى وإن جاهدنا ألا نحصل على ثمر، بل نتعب عبثاً. لنتجنب إذاً السقوط من اليمين ولنحفظ كلام المرثم في المزامير "ليعد في الحين القائلون لي حسناً حسناً"<sup>٤٦</sup>. "الغرور" هو "الص"<sup>٤٧</sup>. نحتاج لانتباه كثير لئلا يخدعنا الشرير، ولكي نؤمن أننا "دود التراب"<sup>٤٨</sup>. من يطمع بالظهور في المناصب والسلطان يُخدع بسهولة<sup>٤٩</sup>. على العكس يوصينا الشيخ يوسف أن نحب الحفاء<sup>٥٠</sup> ونتجنب الظهور<sup>٥١</sup>. لأن النجاح في الحياة الروحية يتطلب ملامة الذات وليس الإدعاء بفضائل ليست فعلاً فينا<sup>٥٢</sup>. ملامة الذات لا تسمح بالقناعة بالذات حتى في لحظات افتقاد النعمة لنا. ملامة الذات تتواجد مع خوف الله دوماً<sup>٥٣</sup>. عكس ذلك، سيجد الشيطان طريقه بسهولة إلى خداع المؤمن ولو برؤى وكشوفات<sup>٥٤</sup>.

ثلاث هي طرق الشيطان ضدنا في الحرب الروحية: الجهل، الخدعة والمجد الباطل أو الغرور. ملامة الذات تحفظ الإنسان من الغرور وكل هذه الشباك لأن الله "يقاوم المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة"<sup>٥٥</sup>. "اذهب عني يا شيطان"، علينا أن نصرخ بالفكر الذي يوهنا أننا أفضل من الآخرين، يوصينا الشيخ يوسف<sup>٥٦</sup>. "إن ملكت بعضاً من خبرة أو رؤى، فهذا مدعى مسؤولية وليس افتخار"<sup>٥٧</sup>. نلوم ذاتنا ونقرعها

<sup>٤٢</sup> المرجع السابق، ص ٣٩٩.

<sup>٤٣</sup> انظر يوحنا الذهبي الفم، [Εκλογή περί ταπεινώσεως, PG 63, 618A]. انظر أيضاً:

Spidlik, Tomas, *Η πνευματικότητα του Ανατολικού Χριστιανισμού*, μετάφραση Β. Ψευτογκά, έκδ. Πουρναράς, Θεσσαλονίκη 2000, σ.130.

<sup>٤٤</sup> Καλλίστου και Ιγνατίου Ξανθοπουλών, *Περί των αιρουμένων ησυχως βιώναι, Φιλοκαλία των Ιερών Νηπτικών*, τ.Δ', έκδ. Αστήρ, Αθήνα 1961, σ.276.

<sup>٤٥</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.54, 445.

<sup>٤٦</sup> مز ٦٩، ٣.

<sup>٤٧</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.408, 420, 363.

<sup>٤٨</sup> المرجع السابق، ص ٣٠٧.

<sup>٤٩</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.404.

<sup>٥٠</sup> المرجع السابق، ص ٦٢.

<sup>٥١</sup> المرجع السابق، ص ٧٤.

<sup>٥٢</sup> المرجع السابق، ص ١١١.

<sup>٥٣</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.215.

<sup>٥٤</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.404.

<sup>٥٥</sup> أم ٣، ٣٤، يع ٤، ٦.

<sup>٥٦</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.410.

<sup>٥٧</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.367.

"كل من أعطى كثيراً يطلب منه كثير". لو ١٢، ٤٨.

عندما تتوارد إلينا أفكار تعالٍ على الآخرين، وذلك بتذكّر تدبير الله وحكمته في "كيف يوزّع رحمته بطرقٍ مختلفة، بحسب اختلاف الطباع والظروف والمكان والزمان، كما ورد في مثل الوزنات"<sup>58</sup>. نعم بمقدار ما تصير مجاهداً جيداً بمقدار ما تغدو طفلاً ومتبالهاً بالمسيح<sup>59</sup>.

كيف يتعالى من يلوم ذاته؟ مادام بملامة الذات سيعرف:

- أن كل ما عنده هو هبة من الله: "يا نفسي الناكرة الجميل، ما لك ولم تُوهبته؟ ومادام كل شيء هبة ما بالك تفتخرين وكأنك لم توهبي ما لك؟"<sup>60</sup>.
- إن ثبتت النفس في الفضيلة، فلأنّ النعمة تسندها<sup>61</sup>.
- إن سقط أخ، فلأنّ النعمة قد غابت<sup>62</sup>.
- أن العدل هو أن تحمل أتعاب الأخوة حتى الرّمق الأخير.

الشيخ يوسف نفسه، عندما وصل إلى جبل آتوس، وهو يحمل صورةً مثاليةً جداً عنه، فإنّه حين كان لا يجد ذلك محققاً دائماً في كل مكان، لم يكن يدين أحداً البتة، وإنما راح يبكي ذاته فهاراً وليلاً<sup>63</sup>. تهجرنا النعمة أحياناً، لتعلمنا من الخبرة ألا تترفع<sup>64</sup>. إذاً "لا تدينوا أحداً البتة ولا تحكموا على أحدٍ مهما كان السبب"<sup>65</sup>. ملامة الذات تعني أن ينتبه الإنسان إلى نواقصه بدل إنجازاته، وعلى العكس مع الآخرين، أن ينتبه إلى حسناتهم ويتغاضى عن نواقصهم<sup>66</sup>. عندما ينظر الإنسان إلى نفسه لا بعينيه الخاصتين، إنما من منظور العين الإلهية، سيرى كيف ينتظره الله أن يكون<sup>67</sup>.

ملامة الذات تدرّب الإنسان على إنكار ذاته وأن "يعطش إلى خلاص الأخوة"<sup>68</sup>، وأيضاً في صلواته سيذكر الجميع، حتى من لم يطلب ذلك منه. ملامة الذات توضع نحو الأعلى لأنّ "توضع الذات بملامتها يرفعنا إلى الرؤيا". تجعلنا ملامة ذاتنا نقدّر الأخ أكثر مما نقدّر أنفسنا. لقد كان الشيخ يوزّع ما عنده على الآخرين للدرجة التي كان يصير فيها هو في عوز<sup>69</sup>. لأنّ هذا الفنّ الروحي يجرّ الإنسان من عبادته لذاته ومن

<sup>58</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.366.

<sup>59</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.258. *Ευεργετικός*, τ.Γ', έκδ. Επισκόπου Ματθαίου Λαγγής, Αθήνα 2001, σ.315.

<sup>60</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.312.

<sup>61</sup> المرجع السابق، ص 312.

<sup>62</sup> المرجع السابق، ص 312.

<sup>63</sup> المرجع السابق، ص 220.

Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.44.

<sup>64</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.137.

<sup>65</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.207.

<sup>66</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.47. «Υπερηφάνεια», *ΘΗΕ*, τ.11, Αθήνα 1967, σ.960.

<sup>67</sup> *Ευεργετικός*, τ.Α', έκδ. Επισκόπου Ματθαίου Λαγγής, Αθήνα 1993, σ.671.

<sup>68</sup> Γέροντος Ιωσήφ ο Ησυχαστής, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σσ.380-1.

<sup>69</sup> المرجع السابق، ص 202.

أنانيته. إنَّ الحرب ضد الأنانية حربٌ قاسية، لكنَّ نعمة الله قادرةٌ على ذلك<sup>٧٠</sup>. هذا الجهاد هو "استشهاد غير دموي"<sup>٧١</sup>.

نعم، يوبّخ الإنسان ذاته ويلومها، لكن كلَّ ذلك بدافع من محبته للرب، "من أجلك أموت في الميدان، يا روحي العذبة يا يسوع، يا نوري وحياتي"<sup>٧٢</sup>، يقول الشيخ يوسف.

أولى الثمار الروحية من ملامة الذات هي الخلق المتواضع<sup>٧٣</sup>، ثم حبّ التعب والجهاد<sup>٧٤</sup>: "اتضعتُ فخلصني الرب"<sup>٧٥</sup>. المتواضع الخلق يعرف ضِعْتَهُ ويتمسك بقول السيد: "بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً"<sup>٧٦</sup>. المتواضع هو قاعدةُ بناءِ الفضائل والشرط السابق لها<sup>٧٧</sup>. لا تتوصّل إلى التواضع بجهودنا الخاصة فقط. "إنَّ محاولة التواضع دون الاعتماد على النعمة الإلهية، تشبه محاولة اقتناء صورة الشيء وليس الشيء عينه"<sup>٧٨</sup>.

ملامة الذات هي إذًا حربٌ ضد التعالي والغرور، وحربٌ على كلِّ ما من شأنه أن يطرد النعمة، أي إنها حربٌ على كلِّ الأهواء. يكتب الشيخ في إحدى رسائله: "الأهواء مادة قاسية، سلسلة جبالٍ شاهقة، بآلاف الأمتار من العلوّ. نعمة الله هي الشمس. تشرق الشمس، لكن الجبال ترمي ظلالها على الإنسان وتمنعه من رؤية النور"<sup>٧٩</sup>. عندها، عندما يتعب الإنسان من اضطراب الأهواء ينشد الحرية منها، ويطلب النعمة الإلهية ويشتهيها. غاية كلِّ جهادنا هي اقتناء نعمة الروح<sup>٨٠</sup>.

يتكلّم الشيخ يوسف عن المعرفة العمليّة، التي تسبق المعرفة الطبيعية للكائنات، حالةً يقدر فيها المؤمن أن يعود إلى ذاته ويحاسبها، عندها تقترب منه النعمة<sup>٨١</sup>، بحسب عبارة كاتب حياة الشيخ يوسف. يحتاج الإنسان إلى جهادٍ قاسٍ ومتواصل ليحقق غاية حياته، أي اقتناء نعمة الروح القدس، وبكلمة أخرى أن يصل إلى الصلابة النقية وبالتالي إلى الرؤيا<sup>٨٢</sup>.

<sup>٧٠</sup> المرجع السابق، ص ٨٤.

<sup>٧١</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.136, 144.

<sup>٧٢</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.86, 293.

<sup>٧٣</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.359.

<sup>٧٤</sup> المرجع السابق، ص ٣٦٠.

<sup>٧٥</sup> مز ١١٤، ٦.

<sup>٧٦</sup> يو ١٥، ٥.

<sup>٧٧</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.360.

<sup>٧٨</sup> المرجع السابق، ص ٣٦٠.

<sup>٧٩</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.205.

<sup>٨٠</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.293. Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.292.

<sup>٨١</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.357.

<sup>٨٢</sup> المرجع السابق، ص ٢١٥.

- جاهد لتجعل النعمة ملكك ولا يسرقها الكسل منك، ينصح شيخنا<sup>٨٣</sup>. وبعد جهاد اقتناء النعمة يلزم جهاداً آخر للحفاظ عليها.

- "انتبهي يا نفسي الشقية إلى المجد الإلهي الذي تترين به كإله على الأرض"<sup>٨٤</sup>.

التبدل وعدم الثبات في الحياة الروحية هو واقعٌ معروف. تعرف حركة الجهاد الروحي لحظات حضور النعمة كما لحظات غيابها. بعض التبدلات يعود لأسباب طبيعية لا جرم فيها ولا مسؤولية. بعضها الآخر يحصل بسبب خطايانا الشخصية. عندما يسمح الله وتمجرنا النعمة، وخاصة في الحالات التي يدين فيها الإنسان الآخرين بدل أن يلوم نفسه، عندها يجعلنا الله نتضع ونرى خطايانا<sup>٨٥</sup>، "لا تحزن إذا غابت النعمة أو حضرت، لأنها بذلك تروّضك على التفكير بتواضع دون ترفع"<sup>٨٦</sup>. لنعرف ولنتعلم أن ملامة الذات أهم وسيلة للتقدم الروحي، وأنه علينا دوماً النظر إلى الأسباب الحقيقية لأخطائنا<sup>٨٧</sup>. لأنه كما يقول الأب مرقس الناسك: "كل خطأ نقوم به دون إرادتنا تأتي أسبابه من أخطائنا التي أتمناها بإرادتنا. وليس من عدو للإنسان إلا أنانيته وذاته"<sup>٨٨</sup>.

تحرك الأهواء يطرد النعمة، وخاصة الكسل والتعالي فهما يمنعان حضرتهما كلياً. إن ملامة الذات هي الدواء لهذا الداء<sup>٨٩</sup>. حربٌ قاسية أخرى نتعرض لها عندما تسحب النعمة حضورها<sup>٩٠</sup>. إن عمل النعمة شأن دقيق جداً. "يجب أن يشغلنا حضور النعمة ويهمننا، لأنه بدون النعمة لا نحقق شيئاً"<sup>٩١</sup>، "إن حضور النعمة في النفس يتطلب من الإنسان تصرفات مسيحية كخلق المسيح"<sup>٩٢</sup>.

ملامة الذات تستدعي النعمة ثانية<sup>٩٣</sup>، "قبل أن أذلل أنا ضللت. أما الآن فحفظت أقوالك"<sup>٩٤</sup>. "في سبيل استعادة حضور النعمة، بذل الشيخ يوسف الكثير وتعلم من النعمة قيمة ذلك. لقد اختبر الحرب العسرة والضرورية لاستعادة النعمة بعد غيابها"، يؤكد كاتب حياته<sup>٩٥</sup>، "عندما تُخفي النعمة حضورها المحسوس عن

<sup>٨٣</sup> المرجع السابق، ص ٤٣٦.

<sup>٨٤</sup> المرجع السابق، ص ٤٣٦.

<sup>٨٥</sup> Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, ό.π., σ.52.

<sup>٨٦</sup> المرجع السابق، ص ٥٦.

<sup>٨٧</sup> Γέροντος Ιωσήφ, Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής, ό.π., σ.208.

<sup>٨٨</sup> Περί των οιομένων εξ έργων δικαιούσθαι, Φιλοκαλία των ιερών νηπτικόν, τ.Α', έκδ. Αστήρ, Αθήνα 1957, σ.116.

<sup>٨٩</sup> Γέροντος Ιωσήφ, Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής, ό.π., σ.214, 367.

<sup>٩٠</sup> المرجع السابق، ص ٨٥.

<sup>٩١</sup> المرجع السابق، ص ١٠٣.

<sup>٩٢</sup> المرجع السابق، ص ١٠.

<sup>٩٣</sup> المرجع السابق، ص ٢٠٦.

<sup>٩٤</sup> مز ١١٨، ٦٧.

<sup>٩٥</sup> Γέροντος Ιωσήφ, Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής, ό.π., σ.58.

المجاهد في الشدائد والصعوبات، عندها تزداد معاناة الإنسان ويتضرع بحرارة أكبر<sup>٩٦</sup>. تتطلب النعمة منا أن نسلك "الطريق الضيقة"<sup>٩٧</sup> المرصوفة بالوصايا الإلهية، التي مبدؤها التواضع ولاملة الذات والتوبة الحقيقية<sup>٩٨</sup>. إذا ما أخطأ الإنسان واعترف بذلك وتواضع، على الفور تدنو منه النعمة سرياً<sup>٩٩</sup>، وكما يقول المزمور: "خير لي أني تذلتُّ لكي أتعلّم فرائضك"<sup>١٠٠</sup>. هكذا، ساعين وراء النعمة تقودنا هي إلى التواضع وإلى ملامة الذات. "بدأت الآن أتعلّم أن مداواة النعمة ضرورية بمقدار ضرورة هبتها"، كان يقول الشيخ يوسف للآباء في أخويته<sup>١٠١</sup>.

"العود المطهر"<sup>١٠٢</sup>، الذي "ترتعد منه الشياطين وتخاف، عندما ترى الإنسان يعاقب نفسه به كالشهيد من أجل حب المسيح"<sup>١٠٣</sup>. وماذا يمكن أن تعني ملامة الذات أكثر من ذلك؟ كتب الشيخ إلى أخت في رسالته رقم ٤٢: "وإن رأيت نفسك مُحقةً بالكلية أدبيها وأقنعيتها أهما غير مُحقة. هذا، يا أختي، فنّ الفنون وعلم العلوم. أدبي ذاتك إلى أن تسمي الظلمة التي تراها نوراً والنور ظلام. لنلغ الحقوق. ولنطرح التعالي بالكلية. صيري طفلةً بوعي عميق وبارادتك"<sup>١٠٤</sup>. نعم لقد كان الشيخ يؤدّب ذاته ويضربها، ليس أفكاره وحسب وإنما هذا الجسد عينه. هذه المساواة ولاملة الذات القصوى اعتمدت، عند الشيخ يوسف، على كلمات بولس الرسول: "فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا"<sup>١٠٥</sup>. يميل الجسد بسهولة إلى الكسل والراحة. لهذا اتخذ الشيخ لذاته قانوناً: "أعط دماً وخذ روحاً"<sup>١٠٦</sup>. وهو يفسّر هذه الكلمات هكذا: "مبادلة راحة وإلهية، إذ نعطي أرضاً ونأخذ سماءً، نبادل الروح بمادة. كلّ جهدٍ أو ألمٍ أو أعراق هي مبادلة راحة. نطرح دماً فنشرب روحاً"<sup>١٠٧</sup>. من الطبيعي أن يلوم الإنسان ذاته عندما يخطئ أو عندما يدرك غياب النعمة. لكن العجيب هو، أن يلوم الشيخ ذاته في اللحظات التي كانت تملؤه النعمة والتعزية الإلهية: "يا سيد، إن لم تحفظ جري ماء النعمة، فالإنسان كالشمع

<sup>٩٦</sup> المرجع السابق، ص ١٥٥.

<sup>٩٧</sup> مت ٧، ١٤.

<sup>٩٨</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.197.

<sup>٩٩</sup> المرجع السابق، ص ٣٨٣.

<sup>١٠٠</sup> مز ١١٨، ٧١.

<sup>١٠١</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.284.

<sup>١٠٢</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.71.

<sup>١٠٣</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.143.

<sup>١٠٤</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σσ.257-8.

حدير بالذكر أن الشيخ كان يطبق هذه المساواة، التي كانت ثمرة ملامة الذات الصادقة، على نفسه فقط. بينما جعلته ملامة الذات متحنناً جداً مع الآخرين ومتفهماً لضعفاتهم. انظر:

Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σσ.147-8.

<sup>١٠٥</sup> رو ٨، ١٨.

<sup>١٠٦</sup> Οσίου Πέτρου Δαμασκηνού, *Βιβλίον Β'*, Λόγος Ω (24), *Φιλοκαλία των ιερών νηπτικών*, τ.Γ', έκδ. Αστήρ, Αθήνα 1960, σ.168.

<sup>١٠٧</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.207.

يذوب"<sup>١٠٨</sup>. يلحظ كاتبُ سيرة الشيخ أنه "كان يعتبر ذاته أسوأ حتى من الحيوانات"<sup>١٠٩</sup>. لكن السبب واضح، وبحسب صلاة الشيخ: "لست أنا مستحقاً لهذه العطايا، يا أبتاه (الله)، لكنك رحمتني كالابن الضال"<sup>١١٠</sup>. إنَّ الرؤى العديدة والكشوفات السامية والخبرات الفريدة، لم تجعله يوماً يفتخر، على العكس كانت تدفعه إلى التواضع والشكر<sup>١١١</sup>، لأنه كان يعيد فضل ذلك كله إلى الله وإلى عنايته الصالحة؛ ولعلَّ هذا هو السبب الذي جعل النعمة تفيض عليه وتفتقده أكثر.

لم تجعل قساوة الحياة النسكية الشيخَ يشعرُ بالبرِّ الذاتي، بل زادت من لومه لذاته. آمن بعمق أن "كلَّ أمر صالح هو من لدن الربِّ" وكان دائماً يجد الأسباب ليلوم ذاته. لقد كان يبكي في الصلاة، لكنه يقول: "لقد حققتُ الفضيلة الأولى ويبقى لي أيضاً التسعة والتسعين الأخرى"<sup>١١٢</sup>.

البرهان على التقدم الروحي للإنسان هو أن يعرف أخطائه<sup>١١٣</sup>. ما معنى الدموع وما دواعيها إذا لم يكن هناك إدراكٌ لخطايانا وملامةٌ لذواتنا<sup>١١٤</sup>؟  
- أتبكي أيضاً؟ سأله تلاميذه قبيل ساعة وفاته.  
- من يعرف إذا كانت أعمالي قد أرضتِ الله؟ أجاب الشيخ.

لا تشتري الأعمالُ والجهاداتُ النسكيةً ولا كلَّ المحاولاتِ نعمةَ الله. هذه الأعمال تستطيع أن تبرهن فقط عن رغبة الإنسان وصدقِهِ في طلب النعمة.  
ساد لفترةٍ في الكنيسة الغربية اليقينُ بالقيمة الذاتية للأعمال، التي بها نحصل على الخلاص. أمَّا البروتستانت فيشدّدون على الخلاص بمجرّد الإيمان، لدرجةٍ فقدوا فيها كلَّ ضرورةٍ للحياة النسكية. التقليد الأرثوذكسي، ويعبر عنه الشيخ يوسف، يجمع بين التقليدين السابقين ويصلحهما. نعم لا تقدر الأعمال أن تشتري النعمة ولا بأيّ طريقة، لكن الأعمال تستدعي النعمة، وتبقى النعمة هبةً حين حضورها<sup>١١٥</sup>. لا تمحو ملامة الذات الخبيثة بالعدل.

<sup>١٠٨</sup> المرجع السابق، ص ٤٢٩، ١٩.

<sup>١٠٩</sup> المرجع السابق، ص ٤٢٩.

<sup>١١٠</sup> المرجع السابق، ص ٢٣١. انظر أيضاً ص ٢٣٠.

<sup>١١١</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σσ.80-4.

<sup>١١٢</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.435.

<sup>١١٣</sup> المرجع السابق، ص ٣٢٦.

<sup>١١٤</sup> المرجع السابق، ص ٣٢٦.

<sup>١١٥</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.367.

لقد كانت حياة الشيخ "استشهاداً يومياً"<sup>١١٦</sup>. كان برنامجه اليومي يبرهن عن نكرانه لذاته ولراحته، وعن خُلُقهِ المتواضع<sup>١١٧</sup>. كان يسهر كلَّ ليلة<sup>١١٨</sup>. لم يكن يجب الحلول الوسط والتنازلات. هكذا قضى كلَّ حياته بجهادٍ متواصل<sup>١١٩</sup>، وبأصوامٍ كثيرة<sup>١٢٠</sup>. ذاب جسمه من الجهاد، ولم يرحمه براحةٍ بل كان يلوم ذاته على الدوام<sup>١٢١</sup>. كان يريد دائماً أن يجاهد أكثر ويشعر أنه مقصّر في النسك، وبالتالي يلوم ذاته مع الدموع والتضرعات والاتكال على رحمة الله ومساعدة نعمته.

قادته ملامة الذات إلى الدقة القصوى في التزام البرنامج الرهباني<sup>١٢٢</sup> حتى في ظروف مَرَضِيَّة<sup>١٢٣</sup>. عانى من آلامٍ قويةٍ في صدره، نزع الدم... الخ. ومع كلِّ هذا لم يخفف من جهاده، بل أحبَّ برنامجه وحافظ عليه بدقة<sup>١٢٤</sup>. "الروح مستعد أمّا الجسد فضعيف"<sup>١٢٥</sup>. بملامته لذاته بشكلٍ مستمرٍ أذاب جسده بالنسك، ولم يبرر ذاته ولا مرة. حافظ دائماً على نكران الذات والتوبة وعلى "الغيرة الإلهية" وحبّه للأتعاب والجهاد<sup>١٢٦</sup>. "ارفع التجارب، فلا يخلص أحد" يقول كتاب الفيلوب كاليا<sup>١٢٧</sup>.

يسكب الله نعمته بفيض ويلوم الإنسان ذاته بالمطلق، هذا هو قانون التعاون مع النعمة. بداية الشرور، أن تعتقد بأنك تحصل على النعمة نتيجة جهادك، وأن أولئك الذين يفتقدون إلى النعمة يفتقدونها بسبب ضعف جهادهم، هذه قناعة شريرة تولد الكبرياء وتغذي الأنانية. لأنَّ "الله كما أنه يستهزئ بالمستهزئين هكذا يعطي نعمة للمتواضعين"<sup>١٢٨</sup>. تنسحب النعمة من حياة المتكبر إلى أن يتعلم من الخبرة أن الإنسان عندما يكون لوحده "أشبه نفخةً، وأيامه مثل ظلٍ عابر"<sup>١٢٩</sup>.

<sup>116</sup> Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, ό.π., σ.229.

<sup>117</sup> المرجع السابق، ص ٢٦١.

<sup>118</sup> المرجع السابق، ص ١٨.

<sup>119</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.52, 54.

<sup>120</sup> المرجع السابق، ص ١٣٠.

<sup>121</sup> المرجع السابق، ص ١٥١-١٥٢.

<sup>122</sup> المرجع السابق، ص ١٢٨:

"Εριχνε το βάρος και έδινε αξία στην προγραμματισμένη ζωή, και γι' αυτό ακριβολογούσε στα τυπικά μας και επέμενε στην τήρησή τους".

<sup>123</sup> المرجع السابق، ص ١٥٣-١٥٤.

<sup>124</sup> المرجع السابق، ص ١٣٣.

<sup>125</sup> مت ٢٦، ٤١.

<sup>126</sup> المرجع السابق، ص ١٧٧.

<sup>127</sup> *Αποφθέγματα Γερόντων, Αββά Αντωνίου 5, Φιλοκαλία των νηπτικών και ασκητών*, έκδ. Πατερικά εκδόσεις «Γρηγόριος ο Παλαμάς», Θεσσαλονίκη 1978, σ.44.

<sup>128</sup> أم ٣، ٣٤.

<sup>129</sup> مز ١٤٣، ٤. انظر أيضاً:

عاني، هو ذاته، مرّة، من حرب شيطانية في رغبات الجسد، لم تكن دوافع هذه الحرب طبيعيةً فقط<sup>١٣٠</sup>، في مكان لا توجد فيه المسببات، بل كانت حسدَ الشياطين وشرّهم بالذّات<sup>١٣١</sup>. بذل الشيخ مجهوداً استثنائياً<sup>١٣٢</sup>، ولكن دون أية نتيجة. فجأة انسكبت نعمةُ الله، وعلى الأرجح بركة السيدة العذراء والدة الإله، وانتهى كلّ شيء. "اختفت الأفكار كلياً"<sup>١٣٣</sup>. من هنا تعلّم ألاّ يتكل على جهاداته فقط وألاّ يفخر بها واختبر عملياً أنه "ليس لمن يسعى ولا لمن يركض، ولكن لله الذي يرحم" يعود الفضل في كلّ شيء<sup>١٣٤</sup>. وإذا لم يبنِ الرّب البيتَ فباطلاً يتعب البناؤون، وإذا لم يجرسِ الرّب المدينة فباطلاً يسهر الحراس<sup>١٣٥</sup>، لأنّ "كلّ عطيةً صالحة هي من العلوّ من لدن أبي الأنوار"<sup>١٣٦</sup>. هذه كانت صلاةُ الشيخ بعد غلبته في الحروب، صلاةٌ لا إدعاءً فريسي فيها: "يا حبي العذب يا يسوع، أيّ صلاح رأيتَه فينا وقدتنا في طريقك الإلهية هذه؟"<sup>١٣٧</sup>.

عندما تُدرك أنّ كلّ شيءٍ صالحٍ هو هبةٌ لك من الله وليس من جهودك الخاصة "عندها لا تستطيع أن تدين أحداً ولو شاهدته يخطئ جداً بأمّ عينك، لأنك ستقول على الفور: ليست النعمة الآن معه، يا ربّ، لهذا سقط. فإن غابت نعمتك عني سوف أخطئ أكثر. وإذا كنتُ ثابتاً الآن فلأنك أنت تسندني"<sup>١٣٨</sup>. إذاً، تجلبُ الحربُ الروحية ملامةَ الذّات، وكذلك سكبُ النعمة، وأيضاً حالات الفرح الروحي مع الشكر، وهذه لا تقود الشيخ أبداً إلى إدانة الآخرين أو التعالي أو التكبر.

ما أروعَ التهنيدات رغم سكبِ النعمة والخبرات. بهذه التهنيدات يعبرُ الشيخ عن مشاعر التواضع والتوسل، وبها يسجدُ أمام "القادر أن يخلصنا"<sup>١٣٩</sup>. يؤمن الشيخ أنه يستحق العقاب، وكلّ ما كان يطلبه ويرجوه: "يا مخلصي العذب وإلهي، أنا لم أفعل شيئاً صالحاً ومرّضياً أمامك، على العكس كفاعل إثمٍ أستحقُّ العقاب. وعندما سيُحكّم عليّ بالعقاب فبعدل. لكن كلّ ما أتمناه ويكفيني هو ألاّ أحزنك، وأن أجعلك تنظر إليّ بوجه فرح. عندها سيصير لي الجحيمُ فردوساً نيراً!"<sup>١٤٠</sup>.

<sup>١٣٠</sup> المرجع السابق، ص ٧٠.

<sup>١٣١</sup> المرجع السابق، ص ٧١.

<sup>١٣٢</sup> المرجع السابق، ص ٤٦:

"Επειδή ο πόλεμος δεν υποχωρούσε, δεν υποχωρούσα ούτε εγώ στην αντίστασή μου, με την σκληραγωγία και ιδίως την αγρυπνία και τον ξυλοδαρμό. Έκλαια, στέναζα, παρακαλούσα την Δέσποινά μας Θεοτόκο, Λούφαζε για λίγο ο πόλεμος να ξανασάνω και πάλι άρχιζε έντονος. μόνο στην προσευχή έβρισκα ανάπαυση".

<sup>١٣٣</sup> المرجع السابق، ص ٨٧.

<sup>١٣٤</sup> رو ٩، ١٦.

<sup>١٣٥</sup> مز ١٢٦، ١.

<sup>١٣٦</sup> يع ١، ١٧.

<sup>١٣٧</sup> Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, σ.245.

<sup>١٣٨</sup> المرجع السابق، ص ٨٠.

<sup>١٣٩</sup> Γέροντος Ιωσήφ, Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής, ό.π., σ.360, 366.

<sup>١٤٠</sup> Γέροντος Ιωσήφ, 'Εκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας, ό.π., σ.442.

كان يصرخ بتنهيدات: "الأجلك ثُمات في الميدان، ويحي أنا الشقي، ويلي أنا الشرير والعدام الخير! سمعاً سمعت قبلاً، والآن رأتك عيني. لذلك أرفضُ وأندمُ في الترابِ والرَّمادِ" <sup>١٤١</sup>.

ملامة الذات تعني عملياً تبرير الآخرين وتفضيلهم. الشيخ كرئيسٍ وأبٍ روحي بقي خادماً لتلاميذه. كان يؤتّب ذاته ويبرّر الآخرين. في لحظة عَوز وجوع قال: "حقُّ أن أموت أنا في سبيل أن يجيا أبنائي، ولم يأكل البتة" <sup>١٤٢</sup>.

ليس من الممكن أن يطيع أحدٌ عندما يكون متشبثاً برأيه ومعتزاً بذاته متفاخراً. يطيع جيداً مَنْ تعلّم أن يلوم ذاته دائماً وأن يؤمن بمرشده الروي. المطيع يؤمن أن ذاته عليلَةٌ ونفسه مريضة، لذلك يخضعها بحريته لقيادة معلمه الصالح والمختبر <sup>١٤٣</sup>. وعبرَ هذا المرشدُ يخضع كلُّ إرادةٍ له لإرادة الله <sup>١٤٤</sup>. لا يستطيع الأتاني أن يطيع أحداً <sup>١٤٥</sup>.

تشرطُ الطاعةُ أمرين: أولاً ملامة الذات وثانياً الإيمان بالمرشد <sup>١٤٦</sup>. "ألغ كلَّ يومٍ وكلَّ لحظة مشيئتكَ ولا تطلب طريقاً أخرى غير هذه - الطاعة" <sup>١٤٧</sup>، هذه نصيحة الشيخ يوسف. هذا ما تعنيه ملامة الذات ونكرانها لكي نبجدها <sup>١٤٨</sup>.

## خاتمة

ملامة الذات هي فنُّ الفنون، والباب إلى جميع الفضائل. إنَّ التقليد النسكي حول هذا التعليم غنيٌّ جداً. والشيخ يوسف الهدوئي معلّمٌ مميّزٌ وخبيرٌ في ذلك. فعلاً إنَّ الحرب ضد الأناية وتبرير الذات هي حرب صعبة، خاصة لإنسان اليوم ابن المجتمع الاستهلاكي، الذي يتعلّم فيه الإنسان أن يوجد على حساب الآخر

<sup>١٤١</sup> أيو ٤٢، ٦، انظر أيضاً المرجع السابق، ص ٨٦، ص ١٩٠:

"Ημείς δε οι τάλανες είμεθα άξιοι οίκτου διά την πολλήν αγνωσίαν μας. Όπου δωρεάν μας τρέφει ο Χριστός και εκατονταπλασιώς μας ανταμείβει. Εργαζόμεθα μίαν ημέραν και μας πληρώνει εκατόν".

<sup>١٤٢</sup> المرجع السابق، ص ٢٨٣.

<sup>١٤٣</sup> المرجع السابق، ص ١٠٥.

<sup>١٤٤</sup> ٢ كور ١٠، ٥، انظر أيضاً:

Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής*, ό.π., σ.105.

<sup>١٤٥</sup> المرجع السابق، ص ٤١٤.

<sup>١٤٦</sup> المرجع السابق، ص ١٢٥، ١٣٣.

<sup>١٤٧</sup> Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, ό.π., σ.49.

<sup>١٤٨</sup> المرجع السابق، ص ٤٩.

ومحوه. لكن مهما كانت هذه الحرب صعبة فهي حتمية للحياة بالمسيح. لهذا فإن ما يقدمه الشيخ يوسف بحياته وتعاليمه مفيد وضروري جداً اليوم، إنه مثالٌ وقُدوةٌ، وصوتٌ نبويٌّ يوقظنا، ودعوة حارة لنسلك في الطريق الإلهية "الضيقة والمؤدية إلى الحياة" التي شقّها المسيح عندما "أخلى ذاته آخذاً صورة عبدي... ووضع نفسه مطيعاً حتى الموت، موت الصليب"<sup>١٤٩</sup>. نعم، "يعطي الربّ النعمة للمتواضعين"<sup>١٥٠</sup>، أي "للفقراء بالروح"<sup>١٥١</sup>.

ليت حياة القديس وتعاليمه مع شفاعته تقودنا إلى "سمو الاتضاع"، وإلى "الاتضاع الذي للارتفاع"<sup>١٥٢</sup>، إلى إنكار الذات الكلي للمسيح، وإلى الطريق المثلى للبرّ ألا وهي إدانة الذات، لأنّ "الشرط الأساسي لخلاص الإنسان هو إدانته لذاته"<sup>١٥٣</sup>، كما تقول تعاليمُ الفيلوكاليا.

---

<sup>١٤٩</sup> في ٢، ٧-٨.

<sup>١٥٠</sup> يع ٤، ٦.

<sup>١٥١</sup> Spidlik, Tomas, ó.π., σ.129.

<sup>١٥٢</sup> غريغوريوس النيصصي، [Εἰς τον Βίον του Μωϋσέως, PG 44, 414D]. انظر أيضاً:

Spidlik, Tomas, ó.π., σ.129.

<sup>١٥٣</sup> إفاغريوس، [Κεφάλαια παραινετικά 1, PG 39, 1249C].

## المراجع

- Αποφθέγματα Γερόντων, Αββά Αντωνίου 5, Φιλοκαλία των νηπτικών και ασκητών*, έκδ. Πατερικά εκδόσεις «Γρηγόριος ο Παλαμάς», Θεσσαλονίκη 1978.
- Βαρσανουφίου και Ιωάννου, *Κείμενα διακριτικά και ησυχαστικά (ερωταποκρίσεις)*, τ.Γ', έκδ. Ετοιμασία, Καρεάς 1997.
- Γέροντος Ιωσήφ, *Έκφρασις Μοναχικής Εμπειρίας*, έκδ. Ι. Μ. Φιλοθέου, Άγιον Όρος<sup>5</sup> 1996.
- Γέροντος Ιωσήφ, *Ο Γέρον Ιωσήφ ο Ησυχαστής. Βίος, Διδασκαλία, «Η δεκάφωνος σάλπιγξ»*, Ψυχοφελή Βατοπαιδινά 1, έκδ. Ι. Μ. Μ. Βατοπαιδίου, Άγιον Όρος 2004.
- Ενεργετικός*, τ.Α', έκδ. Επισκόπου Ματθαίου Λαγγή, Αθήνα 1993.
- Ενεργετικός*, τ.Γ', έκδ. Επισκόπου Ματθαίου Λαγγή, Αθήνα 2001.
- Καλλίστου και Ιγνατίου Ξανθοπουλών, *Περί των αιρουμένων ησυχως βιώναι, Φιλοκαλία των Ιερών Νηπτικών*, τ.Δ', έκδ. Αστήρ, Αθήνα 1961.
- Μουτσάκη, Βασιλείου, «Ταπεινοφροσύνη», *ΘΗΕ*, τ.11, Αθήνα 1967.
- Μάρκου Ασκητή, *Περί των οιομένων εξ έργων δικαιούσθαι, Φιλοκαλία των ιερών νηπτικών*, τ.Α', έκδ. Αστήρ, Αθήνα 1957.
- Οσίου Πέτρου Δαμασκηνού, *Βιβλίο Β', Λόγος Ω (24), Φιλοκαλία των ιερών νηπτικών*, τ.Γ', έκδ. Αστήρ, Αθήνα 1960.
- Spidlik, Tomas, *Η πνευματικότητα του Ανατολικού Χριστιανισμού*, μετάφραση Β. Ψευτογκά, έκδ. Πουρναράς, Θεσσαλονίκη 2000.